

المحاضرة السادسة المعرفة عند إميل دوركايم

إذا كان ابن خلدون قد مهد الطريق، فإن المفكر الفرنسي إميل دوركايم (1858-1917م) يعد بحق المؤسس الحقيقي لعلم اجتماع المعرفة بالمعنى الأكاديمي الحديث. لقد كرس عمله الأخير والأكثر جرأة، "الأشكال الأولية للحياة الدينية" (1912)، لدراسة كيفية نشأة المقولات الأساسية للفكر البشري (كالزمان والمكان والجنس والعدد والسببية) من المجتمع.

"المقاربة الثقافية خط تقليدي آخر في علم اجتماع المعرفة ينطلق من إميل دوركايم ومدرسته. يمكن ملاحظة توجه سيكولوجي اجتماعي في المدرسة الفرنسية وأيضًا بين أتباعها في الخارج". (Adler, 1955, p5) "في عام 1903، صاغ إميل دوركايم ومارسيل موس (Marcel Mauss) أحد الافتراضات المركزية في علم اجتماع المعرفة. قالوا إن تصنيف الأشياء يعيد إنتاج تصنيف البشر. بالتركيز على العمليات التصنيفية، تعمق دوركايم وموس في صلب الموضوع. فجميع أنظمة المعرفة، سواء كانت بدائية أو متطورة، تتكون من التقسيمات التي ترسم بين أنواع أو أصناف الأشياء. باقتراحهما أن تلك الأنشطة التصنيفية تعيد إنتاج نمط الاندماجات والاستبعادات الاجتماعية، قدما لنا مبدأً موحدًا وجريئًا". (BLOOR, 1982, p267)

افترض إميل دوركايم أن المعرفة ظاهرة جماعية، تتشكل بفعل المعايير والقيم المجتمعية. "كان دوركايم أحد علماء الاجتماع الأوائل الذين تناولوا مسألة التجذر الاجتماعي للوعي والمعرفة بطريقة مباشرة ومفصلة إلى حد ما. جادل دوركايم بأن فكر الأفراد يجب أيضًا أن ينظر إليه كظاهرة مشتقة. تم تصور أفكار محددة على أنها تعكس أطرًا مفاهيمية أو هياكل تصنيفية محددة تتكون من "تمثيلات جماعية" أساسية. هذه، بدورها، كان يجب تفسيرها على أنها متجذرة ومحددة بواسطة "الواقع الاجتماعي" الأساسي. كما جادل بأن الأفكار موجودة وتجد "حقيقتها" فيما يتعلق بوظيفيتها للمجتمع وتغييره وتطوره". (GOFF, 2015, p5)

قدم دوركايم مفهوم "التمثيلات الجماعية"، وهي المعتقدات والأفكار المشتركة التي تربط المجتمعات ببعضها. وقد أبرز تحليله كيف تؤثر البنى الاجتماعية في فئات الفكر الإنساني، مشيرًا إلى أن المعرفة نتاج للحياة الاجتماعية وليست نتاجًا للإدراك الفردي. فهو يرى أن المعرفة، حتى أبسط أشكالها، تتأثر بالبنية الاجتماعية. فالمفاهيم الأساسية مثل الزمان والمكان والتصنيف ليست مجرد فئات عقلية فردية، بل هي نتاج للتنظيم الاجتماعي والخبرة الجماعية.

علاوة على ذلك، رفض "أن يكون العقل مصدرًا للمبادئ الكلية، لأنه مرتبط بتصورات المجتمع وظواهره، فهو ليس بحقيقة ثابتة، بل متغيرة، تتغير بتغير الزمان والمكان والظروف". (خليل العمر، 2007، ص

(36) حيث يرى عالم الاجتماع الفرنسي أن "التصورات الجماعية" (Collective Representations) هي أصل المعرفة. التمثيلات الجماعية لدى دوركايم هي أنماط التفكير والمعتقدات المشتركة التي تتجاوز الأفراد وتشكلها البنيات الاجتماعية. كالتقويم والمعايير الاجتماعية التي تنتج أنماط معرفة مشتركة. علاوة على ذلك، جادل أن المجتمع ليس مجرد تجميع للأفراد، بل هو كيان مستقل له وجوده الخاص، ويتمثل هذا الوجود في "الضمير الجمعي" (أو الوعي الجمعي)، وهو مجموع المعتقدات والمشاعر المشتركة بين أفراد المجتمع.

المعرفة إذن اجتماعية: "التصورات الجمعية هي مستودع وناقل الخبرة الجماعية، وتعتبر عن واقع الوجود الجماعي للمجتمع". حتى الدين - أول شكل من أشكال المعرفة - يولد التصنيفات الكونية. قدم إميل دوركايم ومارسيل موس (Marcel Mauss) في دراستهما "التصنيف البدائي" (1903) أطروحة ثورية مفادها أن التصنيفات المنطقية (مثل الجنس والنوع) ليست فطرية في العقل البشري، بل هي انعكاس للتنظيم الاجتماعي للقبيلة.

المعرفة كحقيقة اجتماعية: بالنسبة لدوركايم، اللغة هي أبرز مثال على التصور الجمعي. فاللغة نظام من الرموز يوجد خارج الفرد ويفرض نفسه عليه، وتحمل في طياتها حكمة وعلمًا تراكم عبر الأجيال. من خلال تحدي الفلسفات التي رأت أن المعرفة تتبع إما من التجربة الفردية (التجريبية) أو من العقل الفطري (العقلانية)، أصر دوركايم على أن المعرفة ظاهرة اجتماعية في جوهرها. إنها ليست مجرد انعكاس للواقع المادي، بل هي بناء رمزي ومعنوي ينتجه المجتمع.

باختصار، نقل دوركايم النقاش حول المعرفة من الفلسفة إلى علم الاجتماع، مؤكدًا أن المجتمع هو الذي يزودنا بالأدوات والمقولات الأساسية التي نفكر من خلالها. حاول عالم الاجتماع الفرنسي "تفسير الأصول الزمانية والمكانية للتصنيف في المجتمعات الأولية، وخلص إلى أن هذه التصنيفات ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالتنظيم الاجتماعي لهذه المجتمعات". (السيد، 2011، ص 59) في دراسته للديانات البدائية، خاصة الطوطمية عند السكان الأصليين في أستراليا، لاحظ أن المجتمع ليس مجرد موضوع للمعرفة، بل هو مصدرها. يشرح دوركايم ذلك عبر آلية "الانفعال الجماعي" التي تحدث خلال الطقوس والاحتفالات. عندما يجتمع الأفراد معًا، تنبثق طاقة أخلاقية وجماعية تفوق الفرد، فيشعر بحضور قوة أعلى منه، هي المجتمع. هذه القوة تسقط على رموز مادية (كالطوطم) لتصبح مقدسة، ومن هذه الرموز والأفكار الجماعية تتشكل التصورات الأساسية للعالم. وبالتالي لا تكتسب المعرفة فقط بالتجربة الفردية، بل تفرض على الفرد عبر "التمثيلات الجمعية" التي تمتلك قوة قسرية وموضوعية.

إسهام دوركايم الأبرز هو إثبات أن مقولات الفهم الأساسية التي تحدث عنها الفلاسفة (مثل أرسطو وكانط) ليست فطرية، بل هي "منتجات اجتماعية". يحلل دوركايم هذه المقولات كالتالي:

• **الزمن:** لا يمكننا التفكير في الزمن بشكل مجرد؛ نحن نفكر فيه من خلال "التقويم". والتقويم هو تعبير عن إيقاع النشاط الجمعي (أيام الأعياد، مواسم الحصاد، أيام الراحة). لذا، فإن "الزمن الاجتماعي" هو الذي خلق قدرتنا على إدراك الزمن بصفة عامة.

• **المكان:** فكرة اليمين واليسار، والأمام والخلف، والمناطق المقدسة والمدنسة، هي انعكاس للتنظيم المكاني للقبيلة أو المجتمع. فالمكان في وعينا هو مساحة "مصنفة" اجتماعياً وقيماً. وعليه، الزمن والمكان هما تمثيلات جماعية، فمفهوم الزمن هو إيقاع الحياة الجماعية (أعياد، طقوس)، ومفهوم المكان هو انعكاس للتوزيع الجغرافي للمجتمع.

• **السببية:** فكرة "القوة" التي تربط بين العلة والمعلول مستمدة من "القوة الاجتماعية" التي يشعر بها الفرد داخل الجماعة. المجتمع هو الذي علمنا أن هناك قوى خفية تحرك الأشياء وتجعلها تتبع نظاماً معيناً.

عالج دوركايم في نظريته السوسيولوجية للمعرفة "ما يسمى بـ"قنات" الفكر. يعني دوركايم بها تلك الأفكار التي "تهيمن على جميع تفاصيل حياتنا الفكرية". لأنها "تتوافق مع الخصائص الأكثر عمومية للأشياء" فهي تضم بشكل طبيعي أفكاراً مثل المكان والزمان والفئة والقوة والسبب والشخصية. يسميها "قوالب الحياة العقلية". وفي مناقشته للفرق بين إحساسنا الذاتي بالزمن والفئة الموضوعية للزمن، يخبرنا أن الفئة هي "في ذاتها ... مؤسسة اجتماعية حقيقية، ويستخدم عند وصف أنظمة المعرفة العامة: إنها، في الأساس، تمثيلات جمعية". (BLOOR, 1982, pp293-294)